جمالية الصورة الشّعرية في قصيدة المقاومة عند محمود درويش

The aesthetic of the poetic image in Mahmoud Darwish's poem of resistance

ط د/ زهدورفاطمة الزهراء[1*]، أ د / مرتاض محمد[2]

[1] جامعة تلمسان (الجزائر) fatimazahra.zehdour@univ-tlemcen.dz

[2] جامعة تلمسان (الجزائر) cmortad2002@yahoo.fr

مخبر الدراسات النقدية الأدبية وأعلامها في المغرب العربي جامعة تلمسان

تاريخ الإيداع: 2023/04/15 **تاريخ المراجعة**: 2024/05/28 **تاريخ النشر**: 2024/06/30

ملخص:

مهما كانت أغراض الشّعر وغاياته، فإنّ المبدع يجنح فيه إلى الخروج عن الأنماط المألوفة بالترميز والاستعارة، بل يستحضر أحيانا نصوصا تجمع بين العراقة والغموض والغيبية من خلال النص العجائبي الأسطوري، وتتمازج تلك السّمات مع الخصائص الأسلوبية في بناء الصورة الشّعرية ونسج المعنى، ولاشكّ أنّ قصيدة المقاومة من أوضح النماذج للتّفاعل الشّعري الملحمي.

في هذا السّياق، تعالج ورقتنا البحثية جمالية الصورة الشّعرية في قصيدة المقاومة عند الشاعر الفلسطيني محمود درويش، وذلك باعتماد منهج النقد والتحليل لأمثلة من قصائده، مع التركيز على مكونات الصورة الثلاثة؛ الأسطورة، واللغة الشّعرية، والمعجم الشّعري. وقد خلصت الدّراسة إلى أنّ الشّاعر تميّز بجودة بناء الصورة، ووصف المقاومة الفلسطينية بين ألم الاحتلال وأمل التّحرّر.

الكلمات المفتاحية: قصيدة المقاومة؛ صورة شعرية؛ أسطورة؛ معجم شعري؛ محمود درويش.

Abstract:

Whatever the purposes and objectives of poetry, the creator tends in it to deviate from the familiar patterns of coding and metaphor, but sometimes evokes texts that combine antiquity, ambiguity, and the unseen through the legendary miraculous text. These features mix with stylistic characteristics in building the poetic image and weaving meaning, and there is no doubt that the poem of resistance one of the clearest examples of this epic poetic interaction.

In this context, our research paper deals with the aesthetics of the poetic image in the poem of resistance of the Palestinian poet Mahmoud Darwish, by adopting the approach of criticism and analysis of examples from his poems, with a focus on the three components of the image ; Myth, poetic language, poetic lexicon. The study concluded that the poet was distinguished by the quality of constructing the image, and describing the Palestinian resistance between the pain of occupation and the hope of liberation.

***Key words**: poem of resistance; poetic image ; legend; poetic lexicon ; Mahmoud Darwish.*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

يدرك قارئ القصيدة المعاصرة في دلالاتها الجمالية والفنية تعدّد فضاءاتها وتنوّع صورها، ولعلّ التجربة الفلسطينية أبانت عن ذلك رغم التزام معظم شعرائها بالمقاومة الفلسطينية وقضية الأرض المحتلة؛ وقد نقلوا بذلك الشّعر الفلسطيني من حدوده التقليدية إلى عالم من الإبداع والمتعة وخصوبة المؤثرات، وهذا ما أغنى البناء الشّعري من خلال مكوناته الشكلية والموضوعية، ومنها التّخيل والاستعارة والرمز والأسطورة، وكذلك الصورة والمعجم الشعري وغيرها من الخصائص الأسلوبية. وقد فتح كلّ ذلك التفاعل مع المتلقي للتّعمق في المنجزات الإبداعية، وعلاقتها بالملحمة، والحماس والمقاومة.

ولقد سجل رائد المقاومة الشعرية الفلسطينية محمود درويش في دواوينه الأوضاع القاتمة في المجتمع الفلسطيني المضطهد حتى صارت قصائده سلاحا من أسلحة النضال وإثارة الحماس لدى الوطنيين، ورفع الوعي العميق بالثورة، كما تدفع تلك القصائد أبناء الوطن إلى التطلع نحو التغيير وتبني المقاومة في ظل المعطيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل الأرض المحتلة وفي المنفى وعلى أرض الشّتات والغربة، لذلك وظف درويش تقنيات فنّية حداثية ارتشفت من مشارب مختلفة قديمة ومعاصرة، أهلته للتربع على عرش أقلام المقاومة.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل نماذج من شواهد تلك الخصائص الفنّية وجمالية الصورة الشعرية عند درويش من خلال طرح التساؤلات الآتية: ما السّمات الجمالية للصورة الشّعرية في قصيدة المقاومة عند درويش؟ وكيف تتجلى في مكوناتها؛ الأسطورة، واللغة الشعرية، والمعجم الشعري؟ وما أثر ذلك في تصوير الملحمة والمقاومة الفلسطينية؟

وللإجابة عن الإشكالات المطروحة، وتحقيق الغاية من هذه الورقة البحثية- الخصائص الفنية في شعر محمود درويش – ارتأينا تتبع بعض النماذج من قصائده بالنقد والتحليل، متبعين عرض الموضوع في المحورين؛ أولا: جمالية الأسطورة في قصيدة المقاومة، ثانيا: جمالية اللغة والمعجم الشعري في قصيدة المقاومة.

أولا: جمالية الأسطورة في قصيدة المقاومة:

كانت الأسطورة ملاذ الإنسان في العهد القديم، يستعملها لينتصر على مآسيه وفواجع أرضه، ويستنجد بها ليخلق بديلا مشرقا يعوض خيباته وهزائمه. وقد عرفها الأدباء في العصر الحاضر بأنّها "حكاية مقدسة يلعب أدوارها الآلهة وأنصاف الآلهة، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة ... هي حكاية مقدسة انتقلت من جيل إلى جيل بالمشافهة"[1]. وقد لجأ الأدباء والشعراء في الفكر المعاصر إلى استحضار البطل الأسطوري أو الحكاية الأسطورية للتعبير عن قضايا فردية وجماعية ترتبط بالظلم والاحتلال والضياع، ولتجسد تلك البطولة المفقودة في الواقع، وهذا محاولة للتخلص من أزمات المجتمع الحالية[2].

كما أصبح توظيف الأسطورة في الشعر المعاصر قضية محورية؛ فالشاعر يتواصل مع الطبيعة من خلال رموزها المختلفة، ويستلهم هذه الرموز الأسطورية حسب حاجة القصيدة الشّعرية إليها، ثمّ يتجاوز استعمال الرمز أو الحكاية الأسطورية إلى "مستوى الاستلهام والاستيحاء والتوظيف من خلال خلق سياق خاص يجسد تفاعل الأسطورة مع التّجربة الشّعرية"[3]. ويُرجع بدر شاكر السّياب استخدام الشّاعر المعاصر للأسطورة إلى

انعدام القيم الشعرية في الحياة المعاصرة؛ فالشّعر غلبته المادة حتى تحطمت آمال الشاعر في الكتابة، وفي اختار بذلك عالم الأساطير والخرافات ليستخدمها رموزا ويبني منها عوالم جديدة يقاوم بها واقعه الجديد[4].

والشّاعر الفلسطيني كغيره من الشّعراء المعاصرين لجأ إلى الأساطير القديمة فوظف رموزها أو شخصياتها في تحقيق البعد الدلالي الذي تمثله من جهة، وفي الرقي بالبعد الجمالي الفني من خلال حضور هذه الأسطورة في اللاشعور الجمعي، إنه – ببساطة – يجسد صورة الظالم الذي اغتصب أرضا لا تحق له، ويصور مآسي شعبه المضطهد فيتدرج في استلهام الأساطير وتنويعها لينقل واقعا مأساويا مريرا، وكان هذا عند سميح القاسم ومحمود درويش وتوفيق زياد.

وبخصوص محمود درويش، فقد استخدم أنواعا عديدة من الرّموز الأسطورية. واستدعى أسماء أسطورية مختلفة ليبرز معاني التجربة الوجودية الإنسانية التي تتمثل في الموت والبحث عن الخلود، وينشئ علاقات الثنائية بين الحب، والحرب والموت والمجد[5]، كما يستحضر درويش شخصية الأسطورة اليونانية "أوديب" في محاولة منه لمعرفة واقعه الذي يعيشه، ويصرّ أوديب على معرفة الحقيقة حتى وإن كان وقعها مؤلما على نفسه، يوضح الشاعر هذا القصد فيقول:

مَا حَاجَتِي للمَعرِفَة؟

لَم يَنجُ مِني طَائِرٌ أَو سَاحِرٌ أَو امرَأَةٌ

العَرشُ خَاتِمَةُ المَطَافِ، ولا لِضِفَافِ قُوَتِي

وَمَشِيئَتِي قَدرٌ، صَنَعت ألوهَتِي

بيَدِي، وَآلِهة القَطِيع مزيَفَة

مَا حَاجَتِي للمَعرِفَة؟

وإذا كانت شخصية أوديبوس قوية شجاعة تصرّ على ولوج عوالم الحقائق ومجابهة المصير المحتوم، فإن درويش تؤلمه هذه الحقيقة ويهرب من معرفتها، فأوديب الفلسطيني حائر مشتّت منكسر، ويستند محمود بالاستفهام كهروب من هذا الواقع المرّ في إنكاره: " مَا حَاجَتِي للمَعرِفَة؟ ".

ثم يستدعي الشاعر رمز الأسطورة "أنات " ليتحدث عن طول الغياب، فخوفه شديد من بعدها ورحيلها:

زَبَدُ اللهَاثِ وصَرخةُ الحَيَوانِ

عندَ صُعُودِ المَعالِي

وعند هُبُوطِه العَادِي

أنَا أُريد كُمَا مَعًا حُبًا، وَحَربًا يَا أَنَات

فَيَا أَنَات

لاَ تَمكُثِي فِي العَالمِ السُفْلي أَكْثَر

رُبَمَا هَبَطَت آلِهَاتٌ جَدِيدَاتٌ عَلَيْنا مِن غِيَابِك وَامتَثَلْنَا للسَرَاب[6].

ويعتمد بناء هذه الأسطورة على غياب الشخصية "أنات" ونزولها إلى العالم السفلي؛ فالشاعر قلق لغيابها الطويل الذي يمحو حضورها في ذاكرة الناس، وهي إشارة رمزية إلى خطة اليهود في خلق الأكاذيب والأساطير بغية امتلاك سطوة تاريخية وإرث حضاري في أرض فلسطين تمهيدا للقضاء على الهوية العربية وإلغاء الحضارة الكنعانية القديمة. وليعيش الشاعر دور البطل الأسطوري في قصيدته، يستند إلى استخدام ضمير المتكلم المقترن بالفعل: "أنَا أُريد كُمَا مَعًا حُبًا، وَحَربًا يَا أَنَات"، وذلك للدلالة على أزمة الأرض وهويتها في الحياة المعاصرة، فينقل ثقافة الأسطورة القديمة إلى ثقافة معاصرة، ويبني واقعا أليما من ثقافة الموت والانبعاث، ويحاول إحياءها مجازا لتغيير الوضع المأساوي:

فَلتَرْجِعي ولْتَرجِعِي أَرْضَ الحَقِيقَة والكِنَايَة

أَرْضَ كَنْعَان البِدَايَة

أرْضَ نَهْديكِ المشَاع

أرْضَ فخِذَيْك المشَاع، لكَيْ تعُودَ المُعْجِزَاتُ إلَى أَرِيحَا[7].

ويجسد محمود من الأسطورة اليونانية شخصية أسطورية أخرى " أودسيوس"، الذي واجه الأخطار في سبيل الرجوع إلى وطنه بعد سنوات من الضياع، تقول الأسطورة: "وعندئذ أثار زوس جامع السحب الريح الشمالية ضد سفننا، فهاجت بعاصفة عجيبة، وأخفى البر والبحر معا بالغمام، وتمزقت أوصال أشرعتها إربا من جراء عنف الريح، ولذلك أنزلنا الأشرعة، وخزناها بعيدا خشية الموت، ورحنا نجدف بالسفن في سرعة بالغة صوب البر، وهناك استغرقنا في الرقاد طيلة ليلتين ويومين، وقد ذابت قلوبنا تعبا وأسى"[8].

ويحاول إبراز رحلة أودسيوس الإنسان الفلسطيني وضياعه لاجئا في الشتات سنوات عديدة، وهو في تعب وقهر وحزن آملا في الرجوع إلى بلده، يوضح هذا الإسقاط في قصيدة: أبي:

كَانَ أُودِيس فَارسًا ...

كَان فِي البَيتِ أَرغِفَةٌ

ونَبيذٌ وأَغطِيةٌ

وخُيولٌ وأَحذِيَةٌ

وأبِي قَال مَرة

حِينَ صَلَى عَلى حَجِر

غضَ طَرفًا عَنِ القَمَر

واحْذَرِ البَحر والسَفر[9].

وإذا ما أردنا أن نضع سيرا للقصيدة، نجد توافقا بين أوديس الفارس والفلسطيني المقاوم، فهما يشتركان في سمات محدّدة ينطلقان منها وينتهيان إليها. ولعلّ العلاقة التشبيهية التي يتلقاها القارئ لأول مرة هي قضية الشتات والإصرار على الثبات للعودة[10].

الشّكل رقم (1): تجليات التناص الأسطوري في قصيدة درويش

المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على تحليل القصيدة ومرجع:
نوارة ولد أحمد، شعرية القصيدة في اللهب المقدس، ص: 126.

الشّكل رقم (2): تجليات الرمز الأسطوري في قصيدة درويش

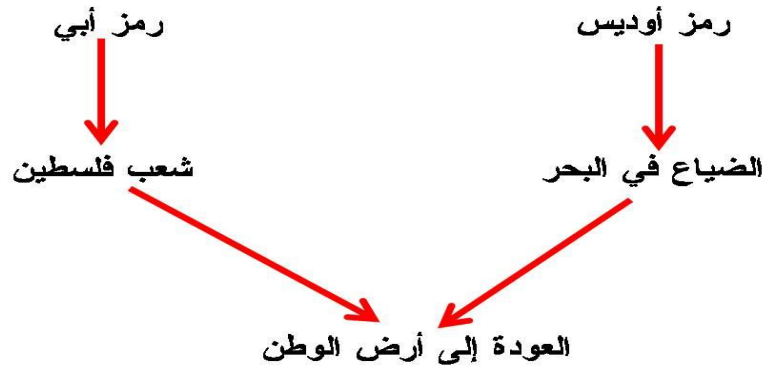

المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على تحليل القصيدة ومرجع:
نوارة ولد أحمد، شعرية القصيدة في اللهب المقدس، ص: 126.

ووظف درويش أيضا أسطورة العنقاء للدلالة على الانبعاث والتجديد بعد النفي أو الاستشهاد، يقول درويش في قصيدة "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا":

كُلَ يَومٍ نمُوت، وتَحتَرقُ الخُطوَات وتُولَد عَنقاَء

نَاقصَةٌ، ثمُ نحيَا لنُقتَل ثَانيةً

يَا بلاَدي، نجيئُك أَسرَى وقَتلَى[11]

ثمّ يستعمل الرمز الأسطوري نفسه ليجدد أمل الفلسطيني في الدفاع عن أرضه ووطنه؛ فالثورة تتجدد بشجاعة أولادها وتضحيات شبابها، وما الشهادة إلا ولادة جديدة لنصر جديد:

وَبَيرُوت اختبَارُ الله، جَرّبنَاكَ جَرّبنَاك

مَن أَعطَاكَ هَذَا اللُغز؟ مَن سَمَاك

مَن أَعلَاك فَوق جِراحنَا ليَرَاك

فأظهَر مثل عنقَاء الرَمَادِ منَ الدمارِ

ويعود درويش ليبحث عن أساطير أجداده في أرض كنعان، فيوظف الرمز الأسطوري "عناة" إشارة إلى أنّه كنعاني ابن الحضارة الكنعانية القديمة، يقول في قصيدته:

رَبِ الأيائِلَ يَا أَبِي.. رَبِهَا:

وَأنَا حَزينٌ يَا أَبي كحَمَامَة الأَبراجِ خَارج سِربِهَا وَأَنَا حزِين

وَأنَا حَزينٌ، يَا أَبي، سَلِم عَلَى جَدي إذَا قَابَلتَهُ

قَبل يَديه نيَابَةً عَني وَعَن أَحفَاد " بعل " أو " عناة "

وأملأ لَهُ إبريقَهُ بالخَمرِ مِنْ عِنَب الجَليل أَو الخَلِيل وقُل لَهُ

أُنثَاي تَأبى أَن تكُونَ إِطَار صُورتِها، وتَخرُجُ مْن رفَاتي[12].

فهذه شكوى للأجداد، ينشرها درويش في رحم الماضي ليذكر نفسه وشعبه أن هذه الأرض المغتصبة هي أرضه الكنعانية العربية، يملك فيها أصلا وتاريخا وتراثا وشعبا عربيا، وأسطورة "بعل" تدلّ أيضا على إله الطقس والخصب الذي بفضله – كما تقول الأسطورة الكنعانية – تتجدّد الحياة، وتتكاثر الكائنات، وتتّم عملية الإخصاب في الكون[13].

الجدول01: بعض الشّخصيات الأسطورية عند محمود درويش

الأسطورة	أصولها	الرمز الدال	الدلالات
أودسيوس	يونانية	المغامرة	الشتات
أوديب	يونانية	التمرد	التمرد
إيكاروس	يونانية	التفاؤل	الثورة النصر
عشتروت	يونانية	الإخصاب، التجدد،	الانبعاث المقاومة
تموز	بابلية	الموت	القتل
أناتا	بابلية	الحب	التجدد
عشتار	بابلية	الخصب	الحرية
يبوس	كنعانية	الولادة	العودة المقاومة
أوزيرس	فرعونية	الرزق	الأمل
إيزيس	فرعونية	الحياة	النثر الشهادة
العنقاء	عربية	الرماد	الثورة
الفينيق	عربية	الخلود	الشهادة

المصدر: الباحثة إلى مرجع: زيدان، أثر اليساري من إعداد بالإضافة رقية الفكر في الشعر الفلسطيني[14].

والدلالات الفنية المعاصرة نسج الشعراء المقاومون ومنهم محمود درويش رؤاهم الإنسانية في نصوص شعرية مندمجة، فحققوا التمازج بين "جذوة الشعر ورماد الأسطورة"[15]، وسار على نهج هؤلاء الشعراء مجموعة أخرى من الأدباء، اعتمدوا على استخدام هذه الأساطير ونوعوا تطبيقها في رحلة إبداعهم الشعرية"[16]، وإن الشاعر

الذي يقتنع بالجانب الفني في بناء النص الأدبي، لا يمكنه التعبير دون أن يمتلك تجربة فنية وطاقة جمالية تمكنه من إيجاد بيئوي متكاملة ذات وحدة عضوية متماسكة، وتكون رؤيا الشاعر بمثابة حصيلة العناصر الدرامية الجدلية المتفاعلة في السياق الذي يضم تلك العناصر[17].

يستفيد الشاعر درويش إذن من الأساطير ليعمق الرؤيا الخاصة به فيكشف الواقع السياسي والاجتماعي، وهذا ما حقّقه في الكثير من مداخلاته الشّعرية، والتحكم أيضا بتراثه الشعبي فوظف رموزا أسطورية شعبية وتراثية، ونلمح هذا التوظيف في قصيدته: "خُطوَات فِي الليلِ":

لِمَاذَا يَهرُبُ الظلُ الذي يَرسُمُني يَا شَهرزادُ؟

والخُطَى تَأتي ولَا تَدخُل

كُونِي شَجَرا

لأرَى ظِلَك

كُونِي قَمَرا

لأرَى ظِلَك

كُوني خِنجَرًا

لأرَى ظِلَك

فِي ظِلِي وَردًا في رَماد[18]!

وثار في نفس درويش الحنين إلى أرضه، والاشتياق إلى تربتها، فوظف الأسطورة التراثية شهرزاد من قصة "ألف ليلة وليلة" ليسترجع فردوسه المفقود، هو يخاطب وطنه "فلسطين" عله يحقق الحلم الجميل بالعودة والحرية، لكنه لا يستطيع إليها سبيلا، فيراها شجرًا وقمرًا وثورةً للنصر. لقد استثمر هذه المعاني الأسطورية الثرية ليغني إبداعه الفني من جهة، وليعيد بناء العلاقة القائمة بينه وبين قضيته الجوهرية "الأرض" من جهة ثانية، لذلك تجاوز تلك الدلالات النمطية ليبتكر تجليات عميقة تتعلق بالهوية الفلسطينية وإرثها الحضاري والإنساني في قالب أسطوري معبر ومتناغم.

ثانيا: جمالية اللغة والمعجم الشعري في قصيدة المقاومة عند درويش:

يرتبط تأليف الشعر عند محمود درويش ارتباطا وثيقا بالوجود الإنساني والطبيعي والجمالي، ولعلّ قوة هذا الارتباط تكمن في الظروف القاسية التي عاشها في حياته، فحرمانه من أرضه وهو لا يزال في عمر الطفولة، وتشرد أهله وشعبه وهمجية المحتل، دوافع عكست اهتمامه بالواقع وثورته على أوضاعه الرهيبة في أعماله الإبداعية الكثيرة. وبذلك تغيرت لغة درويش مع تغير الظروف الحياتية التي مرّ بها، فساهم هذا التغير في تغيير تصوراته للواقع، وربط بذلك بين التراث القديم والحداثة دون أن يجعل بينهما حاجزا أو قطيعة.

هكذا حقق الشاعر التكامل الفني الراقي بين شخصه كفنان مبدع وبين الطبيعة التي لا ينفصم عنها، فأضاف إليها مفاهيم مجازية جديدة تفاجئ المتلقي، وتجعله في حيرة من هذا النص الجديد، والشعر القائم على المجاز لابدّ له أن يكون غريبا؛ لأنه "يفجر الجوانب الأكثر غنى وعمقا في كياننا، الجوانب التي جهلناها أو تجاهلناها

وكبتناها لأسباب كثيرة اجتماعية وثقافية وسياسية، وفي هذا المستوى يكون الشعر خلقا، يكشف عن الأجزاء الخفية أو المنتظرة أو الغائبة من وجودنا، ومن مصيرنا على السواء"[19].

وإنّ سمات الشّعرية وارتباطها بالخيال الذي يصير حقيقة تطابق الواقع حين تصويرها الفني، وهذا ما يؤكده رولان بارت في مقولته: "إننا نعرف أنه ينبغي لكي نعيد للكتابة مستقبلها، علينا أن نقلب الأسطورة، فميلاد القارئ ثمنه موت الكاتب"[20]. وهذه الخاصية تجعل اللغة الشعرية لغة خلق متجددة، تساهم في إنتاج عمل أدبي منفتح، متعدد الدلالات وقابل للتأويل والتمدد، وانحراف اللغة عن حقلها المعجمي هو ما يكسب النص الأدبي قيمته وجماله.

لقد حافظ درويش – لسنوات طويلة – على لغته الثورية الغاضبة، لغة الرفض والتحدي، وكان المغزى من الالتزام بلغة الثورة هو فضح همجية إسرائيل، والدفاع عن حقوق شعبه حتى أضحت اللغة واسطة فنية تجمع ذاته المبدعة بواقعه، بل تتعداها لتفتح باب الانزياح لدى المتلقي، وتنتقل إليه لتعكس على نفسه صورة من صور التعبير الوجداني الصادق، وتفتح له مسافة جديدة لآفاق فنية ماتعة.

وبما أنّ انتقاء اللفظة الشعرية وتنوعها في السياق يضفي على النص الإبداعي قراءة جديدة تختلف عن القراءة المألوفة[21]، فالشاعر معتاد على الانزياح بمفردات قاموسه، فينتقل من عالم الطبيعة المادي إلى عالمه الفني السامي لينسج حلة شعرية متناغمة، وقد ارتأينا تتبع الكلمات التي يوظفها في قصائده، وطريقة استخدامها وتداولها بين المقاطع، هذا كله يساعد الدارس على تحديد قاموس الشاعر واتساع معرفته اللغوية.

ينقل عاشق الأرض المحتلة لغته الخاصة إلى لغة غير مألوفة فتنزاح المعاني ويخلق نظاما تركيبيا تنسجم فيه الألفاظ بأسلوب سلس جميل، وذلك في قصيدته: "ولاء":

أَطعَمتُ للرِيح أَبيَاتِي وزُخرفَها

إن لَم تَكُن كَسُيوف النّضارِ.. قَافِيَتي![22]

ولعل عنوان القصيدة هنا "ولاء"، هو علامة أولى لفك شفرة هذا الانزياح؛ فالشاعر وفي للقضية المقدسة، يسخر صوته وشعره وقافيته لمواجهة العدو البغيض، وينقل صورة طبيعية مادية "الريح" الدالة على ضغط الهواء في الجو لتصبح دلالة أخرى تجعل منها أداة للخراب والدمار والفساد في الأرض، والمقصود هنا الاحتلال الإسرائيلي.

ويبرز القاموس الشعري المستعمل في النص الحالة النفسية التي تتملك الشاعر وتستحوذ عليه، فتؤسس موقفا إنسانيا ثائرا يمجد الوطن، ويستقبح فلول الاستعمار:

بَايَعتُ أَحزَاني ...

وصَافَحتُ التَشَرد والسَغب

غضبٌ يَدي..

غضبٌ فَمي

ودماءُ أَوْرِدتي عَصيرٌ منْ غَضبْ![23]

لقد تصاعدت وتيرة الانفعالات في وجدان الشاعر، فصارت يده سلاحا للمقاومة، وأضحى لسانا ناريا يهجو جبروت الغاصب، ثم يسمو درويش بلغته لينزاح إلى معنى جديد، فيجعل من التشرد والسغب صديقا ومرافقا حين نقل إليهما كلمة "صافحت"، وهذا للدلالة على المصاحبة والاستئناس، والحقيقة أن الشاعر يفتح للقارئ هنا مسافة للتوقع: إنّه يصف واقعا حزينا مزريا لكنه يتطلع بين آفاق الانزياح إلى دلالة أخرى، وهي "الرفض والثورة"، ويمكن أن نمثّل هذه الدلالات في المجسم الآتي[24]:

الشّكل رقم (3): المعجم الشعري والحالة النفسية للشاعر

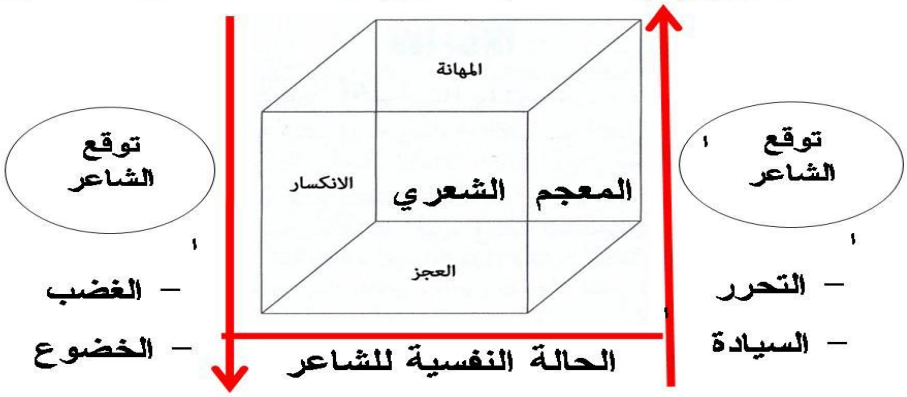

المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على تحليل القصيدة ومرجع: محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية، ص270.

يتميز الشاعر إذن في قصائده الثورية بمعجم ثوري ثري، وهذا الأمر واضح جلي؛ فالحالة النفسية للذات الشاعرة والذات الجمعية تفرض قاموسا محدّدا، تنضوي تحته دلالات الثورة والتحدّي، والظلم والفقر. وإذا ما أجرينا إحصاء للمفردات المعجمية التابعة لهذا القاموسن وجدنا الكثير منها يولد هذه الدلالات الموحية، وهي تعد"مفردات اللغة وتراكيبها وعناصرها الصوتية مادة أولية للمبدع؛ بحيث يسعى إلى الحرص على أن يتميّز أسلوبه بخصائص خاصّة به"[25].

وعلى هذا يحوي قاموس درويش ألفاظا معجمية تميّزه شاعرا فلسطينيّا مقاوما، ويظهر ذلك في معاني: (الحزن، الوحدة، الغضب، الموت، العذاب، شجن، أمل، الغريب)، إنّ هذه المفردات تحيلنا – بلا شك – إلى الحالة المزاجية والانفعالية التي يكون عليها الشاعر كفنان وكإنسان، وهي حالات متقلبة تتغير بتغير الظروف والأحوال، ثمّ يلتحم درويش مع الطبيعة، فينهل من مصادرها ويتماهى مع عناصرها في تصوير معان انزياحية فريدة تتمثل في رحلة ضياع الفرد الفلسطيني والشتات الذي فرض عليه، يقول درويش في قصيدة: "وعاد في كفن":

يَا حَقيبَةَ الثِّيَابْ!
يَا لَيْل! يَا نُجُومُ! يَا إلَهُ! يَا سَحَاب
أَمَا رَأَيْتُم شَارِدًا.. عَينَاه نَجْمَتَان
يَدَاه سَلَّتَانِ مِنْ رَيْحَان
وَصَدْرُه وِسَادَة النُّجُوم والقَمرِ

وشعرُهُ أُرْجُوحَة لِلرِيحِ وَالزَهرِ

أمَا رَأيتُم شَاردًا

مسَافِرا لا يُحسِنُ السَفَر![26].

وتعكس هذه الأبيات جمالية الصورة الشعرية التي نقلها درويش إلى القارئ، وفي الحقيقة، ما هي إلا تجربة ذاتية تعايش معها فأثرت فيه ثم نقلها مرة أخرى من المعنى العادي إلى المعنى المؤثر الموحي؛ فدرويش واحد من آلاف الفلسطينيين الذين شردوا، ولم يجدوا مأوى يحفظ إنسانيتهم. وهنا استعمل الشاعر تصويرا استعاريا جذابا، فاستخدم: (نجمتان – سلتان – وسادة النجوم – أرجوحة للريح) للدلالة على الشّتات في الأرض والضياع، وفي هذا الوضع القائم يفجر عند درويش إشكالية الأرض الفلسطينية المغتصبة، الأمر الذي يدفع به لاسترجاع مفاهيمه المخزنة في ذاكرته، ويستفسر من خلالها عن ماضي فلسطين وحاضرها، ثم يلجأ إلى عناصر الحضارة ليكسب معركة الوجود أو العدم ضد الصهاينة[27].

الشّكل رقم (4): الصورة الشعرية في قصيدة درويش

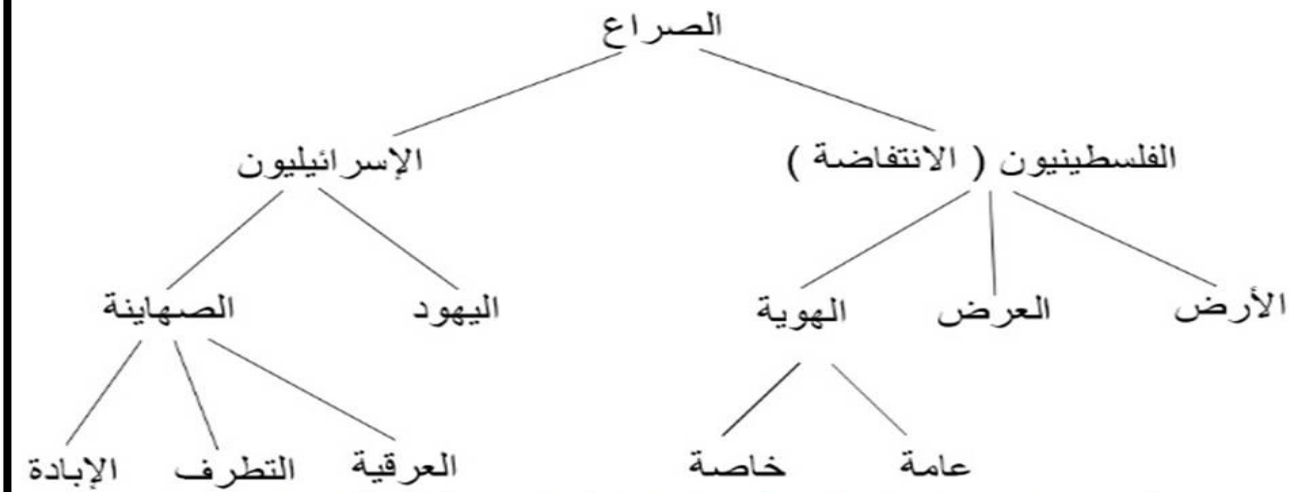

المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على تحليل القصيدة ومرجع:
محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية، ص270.

خاتمة:

أبانت هذه الدّراسة عن سمات فنية وجمالية متميزة ارتقى بها درويش في نصوصه الشّعرية المقاومة، ولاشكّ أنّ خروجه من الأراضي المحتلة باكرا وانفتاحه على الدول العربية، مكناه من إثراء رصيده الشعري، وتطوير قوة التّخيل والتّأمل عنده حتى بدت ظاهرة في صورته الشّعرية. وعموما يمكن الخلوص إلى النتائج الآتية:

- انفتح درويش على ثقافات مختلفة كالإسلام والمسيحية والتوراتية القديمة، ونهل منها وتأثر برموزها وأساطيرها، وهذا ما ولّد لديه تراثا إنسانيا ضخما أسهم في بلورة عمله الشّعري وتطوير العملية الإبداعية، ولا ريب أنّ حبّه الكبير لوطنه الأم فلسطين هو ما صقل هذه الموهبة والحماس.

- سعى درويش إلى محاذاة الحاضر بالماضي الأسطوري؛ بحيث أعاد بناء هذا الماضي ليطلّ على واقع وطنه الممزّق، ويكشف أيضا عن واقعه النفسي المثخن بجراح الخيبات والضياع.

- نوّع درويش من استحضار الشّخصيات الأسطورية، فوظّف الأسطورة اليونانية والبابلية والعربية ليعمق الرؤى الخاصة في معالجة الظروف.

- قدّم درويش صورا فنية ثرية ليسفر عن تحكمه في استلهام الملامح الأسطورية، فتجاوز بذلك الدلالات النمطية إلى خلق تجليات حداثية تصوّر الإرث الإنساني والحضاري للهوية الفلسطينية والأرض العربية.

- انتقى درويش رصيده اللّغوي بعناية فائقة في تمجيد تاريخ وطنه، حتى يعبّر بصدق عن همومه، ويؤازر به أبناء شعبه في الظلم والاضطهاد.

- أبان شعر المقاومة عند درويش عن معجم ثوري ثريّ، يبرز تارة انفعالاته ومشاعره، ويصوّر طورا آخر تلاحمه مع الطبيعة وتنوّع الصور والتّكرار وقوة الخيال والتّأمل عنده.

هوامش وإحالات المقال

1- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، ص19 .20.

2- ينظر: صادق الخضور، التواصل بالتراث في شعر عز الدين المناصرة، رسالة ماجيستير، فلسطين، جامعة الخليل، 2003، ص19.

3- عبد الرحمن القعود، الإبهام في شعر الحداثة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للعلوم والثقافة، الكويت، ع279،

4- هدى قزع، الرمز الأسطوري في الشعر الحديث: www.alwatanvoice.com، 2012.

5- ينظر: مفيد نجيم، التناص الأسطوري في شعر محمود درويش: www.darwishfoundation.or

6- محمود درويش، الديوان، الأعمال الكاملة، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، دط، (2009)، ص288.

7- المصدر نفسه، ص89.

8- هوميروس، الأوديسة، ترجمه أمين سلامة، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، 1974، ص235.

9- محمود درويش، الديوان، ص154.

10- ينظر: نوارة ولد أحمد، شعرية القصيدة الثورية في اللهب المقدس، دار الأمل للطباعة والنشر و التوزيع، (دت)، ص126.

11- محمود درويش، الديوان، مج03، ص109.

12- المصدر نفسه، ص110.

13- ادزارد، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين، تر: محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي ط2، 2000، ص238.

14- نقلا عن: رقية زيدان، أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني، دار الهدى، زحالقة، ط1، 2009، ص308،309.

15- زيد مظفر الحلي، التناص الأسطوري في نص حضرة الغياب لمحمود درويش، الحوار المتمدن، ع4328، 2014.

16- ينظر: محمد أحمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، ط3، 1984، ص281.

17- ينظر: يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، دار الآداب، ط1، 1994، ص09.

18- محمود درويش، الديوان، مج3، ص93.

19- على أحمد سعيد أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، ط2، 1996، ص27.

20- فانسان جوف، الأدب عند رولان بارت، تر: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، سوريا، ط1، 2004، ص29.

21- جان كوهن، النظرية الشعرية، ترجمه أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، ط4، 2000، ج2، ص259.

22- محمود درويش، الديوان، الأعمال الأولى، مج1، ص17.

23- المصدر نفسه، ص15.

24- ينظر: مفاهيم موسعة لنظرية شعرية، (اللغة - الموسيقى- الشعر)، المركز الثقافي، ط1، 2010، ج1، ص35.

25- أحمد جاسم الحسين، الشعرية، قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 2000، ص159.

26- درويش، الديوان، مج1، ص29.

27- ينظر: محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية (اللغة – الموسيقى – الحركة)، ص270.

المصادروالمراجع:

أ- المصادر:

محمود درويش، الديوان، الأعمال الكاملة، رياض الريس للكتب، لبنان، دط، (2009). (المدونة)

ب- الكتب العربية والمترجمة:

1- أحمد جاسم الحسين، الشعرية، قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 2000.

2- رقية زيدان، أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني، دار الهدى، زحالقة، ط1، 2009.

3- على أحمد سعيد أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، ط2، 1996.

4- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق، ط1.

5- محمد أحمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر، ط3، 1984.

6- مفاهيم موسعة لنظرية شعرية، (اللغة - الموسيقى- الشعر)، المركز الثقافي، ط1، 2010، ج1.

7- نوارة ولد أحمد، شعرية القصيدة الثورية في اللهب المقدس، دار الأمل للطباعة والنشر و التوزيع، (دت).

8- يوسف حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، دار الآداب، ط1، 1994.

9- فانسان جوف، الأدب عند رولان بارت، تر: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، سوريا، ط1، 2004.

10- ادزارد، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين، تر: محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي ط2، 2000.

11- جان كوهن، النظرية الشعرية، ترجمه أحمد درويش، دار غريب، القاهرة، ط4، 2000، ج2.

12- هوميروس، الأوديسة، ترجمه أمين سلامة، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، 1974.

ج- المجلات والرسائل الجامعية:

1- صادق الخضور، التواصل بالتراث في شعر عز الدين المناصرة، رسالة ماجيستير، فلسطين، جامعة الخليل، 2003.

2- زيد مظفر الحلي، التناص الأسطوري في نص حضرة الغياب لمحمود درويش، مجلة الحوار المتمدن، 2014.

3- عبد الرحمن القعود، الإبهام في شعر الحداثة، مجلة سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للعلوم والثقافة، الكويت،ع279.

د- المواقع الإلكترونية:

1- مفيد نجيم، التناص الأسطوري في شعر محمود درويش: www.darwishfoundation.or

2- هدى قزع، الرمز الأسطوري في الشعر الحديث: www.alwatanvoice.com، 2012.